ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

(تنبيه : الكلام خيال ولا أصل له ، كما ملت أن أقول وأؤكد فى كل مرة)

— ٤ —

غضبت علينا ذات الثوب الأرجوانى ... وما أعرف لى ذنباً جنيته إلا النظر ، وما أحسبها تريد أن تحرم هذا علينا أو تكرهه منا . وأين المرأة التى يسوءها أن ينظر الرجال اليها ويعجبوا بها ويفتتنوا بحسنها ؟ أو يسرها أن ينصرفوا عنها ولا يبالوها ولا يعنيهم أبقيت بينهم أو أمامهم ، أم اختفت عن عيونهم ؟ إن إتباعَ النظرةِ النظرةَ ثناءٌ صامت . والثناء قوت المرأة — وخمرها أيضاً — وقد ترى نساء يسوءهن النظر اليهن لسبب غير راجع إلى وحى الطبيعة فى نفوسهن ، فيرتبكن ويضطربن ، وتضيق الدنيا فى وجوههن ويشق عليهن ذلك حتى ليكبر فى وهمهن أنهن جنيته على أنفسهن وأثرن فضول الرجال . ولكن حتى هؤلاء لا يكرهن الثناء ، بل تشرق له وجوههن ، وتنشرح صدورهن ، إلا إذا جاوزت الاطراء إلى ما هو خليق بسبب نشأتهن أن يزعجهن . وقد كنت مرة أتملم الفرنسية وأتلقى دروساً فيها على فتاة أمها روسية وأبوها نمسوى ، فاستغربت بعد بضعة أيام أنها تلقانى متجهمة ! وبدا لى أنها تستثقل الدرس والتلميذ ، فشكوت إلى صديق وقلت له : إن معلمتى لا تكف عن النفخ ، وأنها طول الدرس تتأفف ، وإنى أريد أن أبحث عن معلمة أخرى ، فلست أطيق هـذا الضجر الذى لا تنفك تواجهنى به . فقال : « لا تفعـل » . قلت : «ولكنى لا أستطيع الصبر على هذه الحال» . قال : «لك العذر ، ولكن ضاحكها وعابثها ... اثن على حسنها ... غازلها برفق ، أى من غير أن تخرج عن حدود الأدب » . فوعدته أن أجرب ذلك . وقد كان . أقبلت طيها فأقبلت علىّ ، وصارت تهش لى وتبش ، وأصبحت تليذها الأثير . وكان لى زميل يتلقى عليها دروساً فى وقت آخر ، وكان مثلى قبل أن يرشدنى صديقى ، أى أنه كان معها كأنها معلم بلحية لا معلمة مدلّة بجمالها وشبابها ، فكان إذا جاء تعبس وتقول : فلينتظر ! فأقول لها : « بل أخرج أنا لئلا يغضب فيضيع عليك درسه » ، فتقول : « دعه يغضب ... إنه يملنى ويزهق روحى» . وكان اسمه « عثمان أفندى » فصرنا — هى وصديقى الذى علمنى وأنا — نطلق اسم « عثمان أفندى » على كل من نراه بليدا جامدا فى حضرة النساء

وأعود إلى ذات الثوب الأرجوانى فأقول إنها كانت راضية عنى . وآية رضاها أنها ظلت أياماً لا تبـدو لى إلا فى ثوب أرجوانى . وكنت لا أراها إلا خفيفة مرحة ، واذا بها — فجأة — تخرج إلى الشرفة فى صـباح فلا تكاد ترانى حتى تنثنى راجعة ، فأعجب وأتساءل : « مالها ؟ ... » ولا أجد جواباً لسؤالى ، فأهز كتفى وأقول : « سنرى » ، ولـكنى لا أرى بعـد ذلك إلا الاعراض والنفور وطول الاحتجاب ، فلا يسعنى إلا أن أعرض أنا أيضاً ، وأن أظهر قلة المبالاة ؛ فلا أفتح النافذة ولا أطل منها إذا كانت مفتوحة ، ولا أنظر اليها إذا طلعت ، فان فى طبعى عنادا ، وأنا مفطور عليه وعلى المجازفة ، ولست أعرفنى اكترثت للعواقب حين يستفزنى شىء . وما أكثر ما أخسر بسبب ذلك . ولـكنى أستطيع أن أكبح ثورة نفسى ولا أستطيع أن أصرفها عن الزهد . وما عجزت قط — إلا فى الندرة القليلة — عن ضبط عواطفى وصد نفسى عن الاندفاع ، ولـكنى أرانى عاجزاً عن علاج نفسى إذا انصرفت عن الشىء وحملها على الاقبال عليه مرة أخرى . وقد كانت أمى تقول إن قلبى أسود ، وكانت تعنى بذلك أنى لا أنسى الاساءة ؛ على أنى لا أنسى المعروف أيضاً ولا أجحده ، فأنا كما يقول ابن الرومى : « للخير والشر بقاء عندى» ، وقد صدق فانا من طينة الأرض ، « والأرض مهما استُودعت تؤدى » . وما أساء إلىّ أحـد إلا نازعتنى نفسى أن أنتقم منه ، ولـكنى لا أزال أحاورها وأداورها حتى أقنعها بأن الدنيا تغيرت ، وأن أخلاق البدو لا تصلح فى هذا العصر المتحضر ، وأن الناس لا يقتل بعضهم بعضاً فى هذا الزمان من أجل تمرة أو من جراء كلمة يسبق بها اللسان ، حتى تسكن وتكتفى بالانصراف

وجلست أحاسب نفسي وأسائلها عن ذات الثوب الأرجواني ماخطبها ؟ . ولِمَ تبدي لي هذا النفور ؟ . أتراها تتكلفه ؟ . ألعل أهلها قد أغاظوا لها وضيقوا عليها فرأت أن تخفف عن نفسها وتعفيها من ثقل تدخلهم بالاحتجاب ؟ . ألا يجوز أن يكونوا قد كرهوا مني طول النظر اليها فكلموها في ذلك فلم يسعها إلا أن تكف عن الظهور ؟ . جائز ! ! ولكن من الجائز أن أكون قد صنعت شيئاً أغضبها . . ومن الحزم على كل حال أن أعرض أنا أيضاً الى حين ، حتى تسكن الثورة التي لعلها ثارت في بيتها وبين أهلها . . ولكن من الانصاف أيضاً أن أحاسب نفسي قليلاً . . فتعال هنا . . اخل بنفسك واجتهد أن تتذكر . .

فتذكرت . . . ذلك أني كنت يوماً في حجرتي فزارني صديق : وكان الجو حاراً جداً ففتحت له النوافذ جميعاً ، فقال لي بعد برهة : « أنظر . . » فسألته « ماذا ؟ » قال « هذه النافذة . . ألا ترى الفتاة التي تبدو منها ؟ » قلت : « إنك بعيد النظر . . وأنا أعترف أني لا أرى فتاة وإنما أرى ذراعاً » قال : « هذا ماأعني . . لا يبدو منها الآن إلا ذراعها ولكنها كانت منذ لحظة تطل علينا وتنظر إلينا » . قلت : « جائز . . كل شيء جائز . . صحيح إن العمارة التي نحن فيها سبع طبقات . . أو عشر . . لا أدري . . وفي كل طبقة شقق كثيرة . . ولكل شقة نوافذ وشرفات لم أعدها . . وقد يكون في بعض هذه النوافذ والشرفات التي لا أراها رجال يطلون منها . . ولكن المعقول أن الفتاة التي لا أزال لا أرى منها غير ذراعها — تنظر إلينا نحن دون هذا الخلق الذي لعله في الشرفات والنوافذ ونحن لا ندري

قال : « لا تمزح . . إن نظرتها إلينا نحن . . وهل يخفى اتجاه النظر ؟ »

قلت : « مايدريني ويدريك ؟ . ألا يمكن أن تكون حولاء ؟؟ تعرف كيف ينظر الأحول ؟! تكون عينه عليك ولكنه لا يراك بل يرى الذي الى اليمين أو الى اليسار . . أليس هذا جائزاً ؟ »

قال : حولاء ؟ ؟ كلا ! ! من قال هذا ؟ ؟ كلام فارغ ! ! إن عينيها جميلتان جداً »

قلت : « معذرة ! إني — كما تعلم — لم أر سوى ذراعها . . وعهدي بالعيون تكون في الوجوه لا في الذراع . . وأظن أن هذا النظام لا يزال هو المتبع في الخلق . . . على كل حال لم أر عينيها الجميلتين . . . »

قال : « والله إنها تنظر إلينا »

قلت : « صادق . . صادق . . . هذه أصابعها تنقر على حافة النافذة ولا شك أنها تعنينا الآن . . »

فقال : « دع المزاح بالله . . أنظر . . أنظر . . »

فنظرت . . وكففت عن المزح بلا حاجة الى زجر آخر . . وكانت الفتاة سمراء — لا بيضاء كذات الثوب الأرجواني — وكانت نظرتها إلينا — لا شك في ذلك — والرجل يدير رأسه أن يرى امرأة تُشتَرِه النظر ولا تكاد تحول عينها عنه . فاذا كنت قد نهضت الى النافذة وأخرجت رأسي منها ورحت أحدق في هذه السمراء الجميلة التي تقبل علينا ولا تعرض عنا أو تتدلل علينا ، فأظن أن لي العذر . . ومن أين لي أن أعرف أن ذات الثوب الأرجواني كانت واقفة في هذه اللحظة وأنها كانت تراعيني وتراقبني ؟ ؟ ولو كنت أعرف ذلك لما صدني عن النظر ، فان حبي لذات الثوب الأرجواني ليس معناه أني عميت وأن عيني لا تستطيع أن ترى غيرها وأني فقدت القدرة على الاعجاب بالجمال في مظاهره المختلفة . ولكن المرأة أمرها غريب ، وإني لأذكر أني كنت راكباً مع فتاة من صديقاتي — وكنت أنا السائق كما لا أحتاج أن أقول — فرأيت فتاة جميلة واقفة على الرصيف فتمهلت لأنظر اليها ، وإذا بصديقتي تقرص أذني فصرخت فقالت : « هذا جزاؤك » فسألتها : « ماذا صنعت ؟ . . بأي شيء أستحق أن تقطعي لي أذني ؟ ؟ . وكيف أستطيع أن أسمع صوتك الحلو بعد ذلك » فقالت « ابق اسمع صوت التي كنت تنظر اليها الآن » قلت « مالها ؟ . . ألا تعجبك ؟ . ألا ترينها جميلة ؟ » فعادت الى القرص ، وعدت الى الصراخ ، حتى كدت أستنجد بالمارة . وقد ساء رأي صاحبتي في بعد ذلك ، وصارت كلما ركبت معي تشترط ألا أنظر لا يمينا ولا شمالا ، فأقول : « ولكن لماذا ؟ ما الضرر من النظر والتلفت ؟ ثم كيف أستطيع أن أثبت عيني في اتجاه واحد وقد خلق الله لي عينين تتحركان ولا تثبتان ؟ » فلا تجيب عن السؤال وإنما

تروح تهددني وتتوعدني فأخاف فان لها قرصا حاميا وأنا جلدي رقيق . ولكني لا أفهم هذا التحكم من المرأة . وما أكثر ما قلت لاحداهن وقد أغضبها أن لي عيناً ترى وقلباً لا يسمه إلا أن يحس « يا ستي إن لك حديقة زهر . وفيها الفل والياسمين والورد الأحمر والأبيض والنرجس وما لا أدري أيضاً . . وأنتن يا نساء كالزهور .. فلماذا تريدين ألا تكون في حديقتي إلا حواء واحدة ؟ »

فتقول : « بالله دع هذه الفلسفة السخيفة . . . ثم إني أكره المكايدة »

فأؤكد لها أني لا أقصد الى المكايدة ، وأقول : « نعم إن حواء واحدة مصيبة . . . وثق أن غلطة أبينا آدم هي أن جنته لم يكن فيها إلا هذه الحواء المفردة . . ولو كان فيها سواها . . عشر مثلا أو عشرون . . لما خرج من الجنة »

فتثور بي وتذهب وتعدو ورائي فأضع ذيلي بين أسناني وألوذ بالفرار »

وما أشك في أن ذات الثوب الأرجواني أسخطها علي نظري الى السمراء . وما تعنيني السمراء لو علمت . ولكنها المرأة لا تعرف إلا نفسها ولا ترضى عما تسميه « العين الزائغة » وهي تشعر بالمنافسة من كل امرأة مثلها ، ولا تستطيع أن تفسر النظر الى امرأة غيرها إلا بأنه تفضيل لهذه الأخرى عليها ولو كانت واثقة من حب بعلها أو رجلها . كنت مرة أتنزه في إحدى الحدائق مع صديقة فقالت « هل تركب زورقاً ؟ » فاستحسنت هذا الرأي وانحدرنا الى الماء واستأجرنا قارباً ، وقبل أن نمضي به تناولت ذراعي وهمست في أذني : « لا تتحرك . . . إني لا أكاد أصدق »

فرفعت عيني اليها فألفيتها ناظرة الى الحديقة التي انحدرنا عنها الى الماء . وكان الهواء ساكنا والمنظر الذي أمامنا كأنه مرسوم ، وكان لفرط جماله يذكرني بأعذب ما قرأت من الأغاني . ثم أشارت بيد أحلى من أناشيد سليمان بن داود وقالت : « ليتني أستطيع أن آخذها !! . » وكأنما قرأت في وجهي استغراب هذا الكلام فقالت « إنها أحلى لعبة رأيتها في حياتي ! »

فقلت مستفسراً « لعبة ؟ ؟ هل قلت لعبة ؟ ؟ أين هي ؟ »

فصاحت بي وهي تشير بأناملها المغربة « هذا . . هذا . . هذا المنظر . . ألا يروقك ؟ »

فأدركت مرادها وإن كنت قد بقيت أستغرب عبارتها ، وقلت « لا . . ليس هذا لعبة . . وإنما هو أسطورة . . »

فهزت رأسها كالموافقة ثم وضعت راحتها على كتفي وقالت « إني سعيدة لأني رأيت هذا »

قلت : « هو أسعد منك .. وما أكثر ما رأى هذا البستان من نساء ولكنه احتاج أن ينتظر الى اليوم حتى تروده حواء لها دل الفتاة وقلب الطفل »

قالت : « لا أظن . . » ثم رفعت وجهها الي وقالت : « انتظر .. لا تتحرك .. إني أنظر الى نفسي في عينيك »

فقلت — وقد أعجبني ذلك : « حسن .. والآن .. لا تتحركي أنت . . فاني أتأمل قوس هذه الشفة . . . »

فذهبت الى آخر الزورق وأرسلت لي مع الريح قبلة

وقالت وهي تجلس هناك : « إن الذي يعجبني منك هو هذا . . أنك لا تأخذني على غرة . . الأكثر في الرجال يعدون المرأة صيداً أو قنصاً . . أما أنت فتشجعني على استعمال حريتي وعلى الشعور بأن لي استقلالاً وإرادة يجب أن يحسب حسابهما . . وكأني بك يسرك أن تدع غيرك يحيا حياته على هواه هو ، أكثر مما يسرك أن تفوز من دنياك بمتع حياتك .. والآن ألا تمضي؟؟»

فقلت وأنا أضرب الماء بالمجداف : « إن فيما قلته عني بعض الغلط .. فأنا أحب أن أصحح لك هذا .. وأنا أعترف أني لست وحشاً . . إذا كان هذا ما تعنين . . ولكن نظريات أفلاطون لا تروقني .. نعم يسرني أن أرى كل انسان يحيا حياته كما يروقه — ولم لا ؟ — ولكن من أبرز نقط الضعف في نفسي أني أحب أن أحيا أنا أيضاً كما أشتهي »

فدنت مني وأراحت أناملها على كتفي ، وأسندت وجهها لي صدري وقالت وهي تضحك : « إنك عبيط .. ألست كذلك ؟ وهذا هو الذي يحببك الي .. »

قلت : « يا ملعونة .. » وأحطتها بذراعي — « ارفعي فكك فاني أريد أن ... أسوي ربطتي في مرآة عينيك ... »

وفي هذه اللحظة الحافلة بالاحتمالات خطرت في دائرة نظري

فتاة كان لا يسعنى إلا أن أراها . وليس لى فى هذا حيلة ولا كان منى عن عمد . ولكنها صارت أمام ناظرى ، فأنا لا بد أن أبصرها . وأحست صاحبتى أن عينى تحولت — كما كان لا بد أن يحدث — فحولت وجهها إلى حيث أنظر فأبصرت الفتاة ، فما كان منها إلا أن انتفضت قائمة ، وضربت المجداف من يدى ، وصاحت بى :

« ارجع بى حالاً ... الى البر ... قبل أن نبعد ... »

فذهلت وقلت : « ولكن لماذا ؟؟ . . . انا لم نبعد إلا خمسة أمتار ... »

قالت : « ليتنا بعدنا جداً ... ولكن لا ... كنت إذن أبقى منشوشة ... مخدوعة ... ارجع ... أقول لك ارجع ... »

ولا حاجة الى رواية كل ما قالت وما أجبت به ، وليثق القارئ أن ريقى نشف كما لم ينشف قط ، فقد ثقل علىّ هذا الطبع ، وأضجرتنى هذه الغيرة السخيفة التى لا محل لها على كل حال . فبعد أن تألفتها من نفرتها ذهبت ألقنها درساً لا أظن أنها ستنساه فى حياتها

ولكن أمثال هذه الدروس لا خير فيها ولا جدوى منها ؛ وما أظنها إلا كالكتابة على الماء

وقد تظاهر المرأة بجارانك ساعة تلقى الدرس ، لأنها ترى هذه المجاراة والتظاهر بالاقتناع والتوبة أحزم وأحسم للنزاع ، ولكنها لا تملك أن تغير طبيعتها ، فهى تظل على الرغم من دروسك كما هى

وقد أحنقنى من ذات الثوب الأرجوانى هذا النفور الذى لا داعى له ، فغضبت وثرت وانتفضت ، فرميت ورقات كانت بيدى ؛ وكنت جالساً بحيث أراها وترانى ، ويظهر أن ما رأته من خروجى عن طورى المألوف أدهشها جدا ، فقد رأيتها تهب وتطل ، فعل من يريد أن يتثبت ويتحقق . ومضيت أنا فى ثورتى ، فجعلت أروح وأجئ فى الغرفة ، وأقول لنفسى :

« لماذا تحرمُ قبل أن تعطى ؟؟ لماذا تبدأ بالمنع ولا تبدأ بالجود ؟؟ لماذا تؤثر السوء ولا تؤثر الخير ؟ ما هذه الطباع ؟ وماذا جنيت أنا ؟ إنى أرانى وهبتها الشعور بحسنها حين أحببتها ، ولو أنها لم يحببها أحدٌ لما وسعها أن تدرك أن لها حسناً يعشق وجمالاً يُحب ... فشعورها بحسنها هو هبةٌ وعطية منى ، لأنى أحببتها ... فكيف تتيه علىّ وتتدلل ، وتحاول أن تعذبنى جزاء لى على مجهودى الذى استفادت هى منه ولم أستفد أنا شيئاً ؟

أى يدٍ لها علىّ ؟؟ أنى أراها ؟؟ فكل من شاء أن ينظر إلى شرفتها ساعة تكون فيها يستطيع أن يراها مثلى فلا فضل لها فى ذلك يحسب علىّ .. ماذا غير ذلك ؟ لا شىء .. انتهينا إذن ! .. وما دامت لا تختصنى بشىء فلا حق لها فيما تتكلفه من حرمانى ... لو كانت لم تتكلف لما عبأت ولما أحسست أن فى الأمر عمداً . . ولكنها عامدة ولست أنوى أن أشايعها على ظلمى . . إذن فأنا أنفر كما تنفر . . . وأحتجب كما تحتجب وليكن ما يكون ! »

وبعد أيام عدت أقول لنفسى : « اسمع . . إنها ليست مثلك . أنت تستطيع أن تخرج ، وتروح ، وتجىء ، وتتسلى وتتلهى ، ولكنها مسكينة لا تملك ما تملك من الحرية ومن وسائل التعزى .. وما يدريك أنها ليست مضطرة الى هذا الذى ثقل عليك وكرهته منها ؟؟ ولا تنس أنها رقيقة القلب . . أليست قد رأت أنك تشكو ألماً فى ذراعك فحدثتك نفسك أن قد بدا لك منها عطف كان له وقع حسن فى نفسك

وقد توسطت وخير الأمور الوسط — كما يقولون — فأنا لا أتكلف الاحتجاب ولا أتعمد أو أتحرى أن أراها ، وأدع هذا وذاك للمصادفة ؛ وسأرى ما يكون . وأخوف ما أخافه أن أمل هذا التعب العقيم فيركبنى عفريت العناد وأجازف

ابراهيم عبد القادر المازنى

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا اجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد فى الخارج ١٥ قرشاً